مجلة الدراسات الإسلامية (Al-Dirâsât Al-Islâmiyya) / المجلس الإسلامي الأعلى/ المجلد 23 ع 01.
20/ 10/ 1444 هج. الموافق 10/05/ 2023
ISSN : 1112-4083

قصر عين سيدي سليمان بوسماحة، دراسة تاريخية أثرية.

The Ksar of Ain Sidi Slimane Bousmaha: A Historical and Archaeological Study

أحمد عقون * Ahmed Aggoun tiout2@gmail.com	علوم إسلامية	باحث جزائري مستقل

الإرسال: 2023/04/27 **القبول**: 2023/04/30 **النشر**: 2023/05/10

****

ملخص:

تشتهر منطقة الجنوب الغربي الجزائري الأعلى باسم "جبال القصور"، وهو اسم أطلقته سلطات الاستعمار الفرنسي عند احتلالها للمنطقة ابتداءا من سنة 1849م، وذلك لتميزها بتضاريس جغرافية متنوعة التكوين من الناحية الجيولوجية، واحتوائها على مجموعة من القصور العتيقة ذاتُ أهمية بالغة من الناحية التاريخية، ولتلك القصور ميزات معمارية وأثرية، تعكس أبعادا ثقافية وحضارية تراكمت مقوماتها عبر السنين، في هذه الورقة سنسلط الضوء ولأول مرة على قصر من تلك القصور التي لم تكن معروفة لدى الباحثين من قبل، وهو قصر عين سيدي سليمان بوسماحة الواقع بالمنحدر الشمالي لجبل بوداود بلدية الشلالة ولاية البيض.

كلمات مفتاحية: قصر؛ سليمان؛ أبي سماحة؛ بني عامر؛ بوداود؛ حميان.

Abstract: The upper southwestern region of Algeria is very famous, and it is known as:"the ksour mountains" a name given to it by the French colonial authorities when they occupied the region, starting in 1849.This is because, it is characterized, by a geographical topography of various composition from a geological point of view. It almost contains a group of ancient palaces (ksour), of great importance from a historical point of view. And those palaces have architectural and archaeological features that reflect cultural and civilizational dimensions, the components of which have accumulated over the years. In this paper, we will shed lights for the first time on one of those ksour (palaces), which were not known to researchers, before. It is the palace (ksar) of ain sidi Slimane bousmaha, which is located on the Northern slope of mount Boudaoud, in the municipality of Chalala in the state of Elbaid.

Keywords: Ksar; Slimane; Abu-Samaha; Beni-Amer; boudaoud; Hamiane.

*****

* - الباحث المُرسل: tiout2@gmail.com

ISSN : 1112-4083

***- مقدمة**

تشير الأبحاث الأثرية والدّراسات الأنثروبولوجية التي أجراها العديد من الباحثين والمستكشفين بمناطق الأطلس الصحراوي، بدءا من الدكتور فليكس جاكو 1847م، فلاماند 1901م، إلى الدّكتور هنري لوت 1970م، مليكة حشيد 1993م، وفرانسوا كومينارديي 1995، أن منطقة الجنوب الغربي الجزائري عرفت العديد من التّطورات التّاريخيّة، ابتداء من حضارة الحصى والصّناعات الحجريّة التي أثبتت عيّناتها المختبرة تواجد وتعايش الإنسان في هذه المنطقة منذ عصور ما قبل التّاريخ وما تركه الإنسان الأول من نقوش صخرية ومحطّات للصّناعة الحجرية، إلى فجر التاريخ وظهور ما يعرف بالقبور الجنائزية ثم تأسيس أولى أكواخ التّجمعات السّكانية قبيل الميلاد التي أصبحت في وقت لاحق النواة الأولى لما يعرف بقصور الصحراء، وهي موازية لحياة البدو الرّحل التي كانت هي الأصل كما يقول ابن خلدون (ابن خلدون، ع، ج7، 2000، ص. 88) وهي بلدات صغيرة متناثرة هنا وهناك حول مناطق الواحات وحول مصادر المياه فأدخلت أنشطة حديثة على سكّان المنطقة كالزّراعة والصّناعة البدائية، وكانت بداية هذا التّطور كما يقول سالّلوستيّوس أن الجيتول بدأ بعضهم مبكرا في الاستقرار وبناء الأكواخ وممارسة الزّراعة التي كانت مقدمة لحياة الحضر والمدينة لاحقا (سالّلوستيّوس، س، 2007، ص33)، ومع الفتوحات الإسلامية تطورت فكرة الحاجة إلى تشييد هذه القصور خاصة مع نزوح قبائل بني هلال وحاجتها للتخزين وتأمين المؤن عبر طرق القوافل، فظهرت العديد من القصور بالمنطقة التي أول من أتى على ذكرها هو العلامة بن خلدون حيث سماها قصور بني عامر المتواجدة قبلة تلمسان.

في هذه الدراسة سأحاول قدر الإمكان تسليط الضوء على قصر من هذه القصور الذي طواه النسيان فلا يعرف له ذكر في منطقة الجنوب الغربي الجزائري الأعلى، لا من الجانب الأثري ولا من الجانب التاريخي، ولا حتى السياحي أو الروحي، وذلك رغم أهميته التاريخية والأثرية والجغرافية، وهو قصر عين سيدي سليمان بوسماحة بجبل بوداود، وهو اكتشاف أثري وسياحي مهم بالمنطقة من شأنه أن يضيف الكثير من المعلومات للباحثين، كما قد يساهم في التنمية السياحية للمنطقة.

فأين يقع هذا القصر؟ وما أهميته التاريخية والأثرية؟

ISSN : 1112-4083

أولا دراسة جغرافية

1- الموقع الفلكي

ينحصر موقع قصر عين سيدي سليمان بين دائرتي عرض 32°- 33° شمالا، وخطي طول 02° و03° غربا. **إحداثياته:** 33°12'56.5"E 0°05'32.0 N.

2- الموقع الجغرافي

يتوسط قصر عين سيدي سليمان جبل بوداود من الجهة الشمالية على ارتفاع 1200 متر فوق سطح البحر، وهو تابع إداريا لبلدية الشلالة ولاية البيض، ويبعد بخط مستقيم عن:

توسمولين شمالا: 52 كلم، المشرية شمال غرب: 52 كلم، بين عين المشرية وعين توسمولين: 52 كلم، الشلالة جنوبا: 20 كلم، المحررة شرقا: 26 كلم، النعامة شمال غرب: 37 كلم، عين مسيف غربا: 30 كلم، عسلة جنوب غرب: 27 كلم، من عجائب الصدف أن المسافة التي تفصل بين عيون الماء الثلاث التي تحمل اسم "عين سيدي سليمان بوسماحة" في جبل بوداود والمشرية وتوسمولين بخط مستقيم هي 52 كلم، وبالتالي تشكل مثلثا متساوي الأضلاع، (المسافة بين عيون سيدي سليمان، صورة 01) وهي المسافة المناسبة والمتوسطة للتنقل والنجعة في اليوم، خاصة في فصل الصيف حيث تقل مصادر المياه وتتقلص مساحات الرعي، وتدل كذلك على المجال الجغرافي الواسع الذي كان يدخل ضمن مناطق رعي سيدي سليمان بوسماحة وعشيرته، وهي أماكن مخصصة أساسا للنجعة، ولتوقف القوافل، ولسقي الماشية والدواب.

كما تعتبر العيون الثلاث المذكورة أعلاه إضافة إلى عين المالحة التي تبعد عن عين سيدي سليمان بجبل بوداود مسافة 14 كلم، من أهم مصادر الماء التي أحصاها الجيش الفرنسي أيام احتلاله للمنطقة، والتي تستعمل لسقي قطعان كبيرة من الإبل والأغنام، وبالتالي فإن من يملك هذه المنابع فهو بالضرورة يملك جميع المراعي المجاورة لها، وفي هذا تذكر المصادر الشفوية أنه إضافة إلى المكانة العلمية والمنزلة الروحية التي وصلها سيدي سليمان بوسماحة، فقد كانت له أيضا مكانة اجتماعية مرموقة بين أبناء عشيرته، فقد كان غنيا ميسور الحال يملك منابع العيون وقوافل الإبل وقطعان الماشية، وقد كان لهذه الرواية ما يدعمها ماديا من حبوس ووثائق ومخطوطات تبين أملاك سيدي سليمان بوسماحة

ISSN : 1112-4083

وحبوسه، بقيت محفوظة في خزائن بعض الزوايا ولدى بعض العائلات المرابطة حتى زمننا هذا، لكن للأسف حال الوصول إليها الكثير من الأسباب والعوائق التي لا يسع المقام هنا لذكرها.

كذلك تذكر الرواية الشفوية أن حادثة نهب إبل سيدي سليمان من طرف بلزرق أحد شيوخ بني عامر كانت في عين سيدي سليمان بجبل بوداود، وقد كان لقبائل حميان دور كبير في استرجاعها من ناهبيها، وهو ما يعزز من فرضية مكوث سيدي سليمان بوسماحة فترة طويلة في بدايات حياته بمنطقة الشلالة، فهذا الفضاء الجغرافي الواسع وبما يحمله من أهمية اقتصادية واجتماعية نظرا لاتساعه وشساعته، هو اليوم يدخل ضمن مناطق رعي قبائل حميان، خاصة اولاد سرور، المقان، والسندان وعكرمة، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن العديد من أسماء الأماكن داخل المثلث المذكور أعلاه تحمل أسماء سيدي سليمان أو أحد أبنائه أو أحفاده من بعده، ككدية سيدي سليمان، وركاب سيدي محمد بن سليمان، وخلوة سيد الشيخ، ومقام سيدي عبد القادر بن محمد، ورجم سيد العربي، ..إلخ فإن ذلك يقودنا إلى تسؤال وجيه ومهم -وهو موضوع بحث مستقل- ما هي الحدود والمجالات الجغرافية لعشيرة سيدي سليمان بوسماحة التاريخية؟ وكيف تغيرت بعد ذلك؟ وما هي الأسباب والدوافع الموضوعية وراء تلك التغيرات؟

ثانيا الدراسة التاريخية

1- المصادر الشفويه

لا تقدم الرّواية الشّفوية الكثير من المعلومات عن قصر عين سيدي سليمان بوسماحة، فالمكان ليس معروفا إلا عند بعض شيوخ قبيلة المجادبة أبناء سيدي أحمد المجدوب ابن سيدي سليمان بوسماحة أو بعض بني عمومتهم، أو البدو الذين يجوبون المنطقة، وكل ما يعرفونه عن المكان "أن به عينا اشتراها سيدي سليمان بوسماحه من أحد شيوخ بني عامر، وبجوار هذه العين توجد خلوة له اتخذها مكانا للتعبد والعزلة، وكانت تقام بالقرب منه سوقا كبيرة لبني عامر كل سنة" أما القصر فلا يأتون على ذكره! بل أن أغلبهم ممن لم يعاين المكان لا يعلم أن به أطلال قصر قائمة إلى يومنا هذا، وهو الأمر الذي يدل على قصور الرواية الشفوية في نقل الكثير من التفاصيل الجوهرية والمهمة في تاريخ المنطقة، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة حياة البدو وأثرها في تكوين ذهنية الفرد البدوي، فالترحال المستمر ينشأ

ISSN : 1112-4083

عنه حالة من عدم الارتباط المادي بالأرض، فيعزز من فرص النسيان ويزيد من قيمة عدم الاهتمام بالعمران، فالبدو حسب ما يورده ابن خلدون في مقدمته "لا يهتمون بالعمران" (ابن خلدون، ع، 2004، ص 455) وحين يقدم البدوي رواية ما حول مسألة تاريخية، فإنه يركز على الجوانب الذاتية والروحية والتأملية في سرده للأحداث التاريخية فاسحا المجال لخياله في التأويل وخلق الأساطير، ويهمل التفاصيل المادية والموضوعية التي من شأنها أن تقدم الكثير من المعلومات والاستنتاجات الضرورية لبناء معرفة تاريخية حقيقية كالعمران والصنائع ونمط العيش وأساليب تنظيم الجماعة وغير ذلك من النّظم اليومية الحضارية، وهي تفاصيل تحتاج إلى التدوين والحفظ والأرشفة، ولا تتناسب وطبيعة البادية ونمط معيشة أهلها، وهو ما ساهم في بقاء الكثير من الفترات التاريخية غامضة عصية على الفهم والتفسير في منطقة الجنوب الغربي الجزائري، ولولا الدور الذي لعبته بعض خزائن الزوايا وكتاتيب القصور في حفظ جزء بسيط من العقود والوثائق والمخطوطات المتعلقة بحياة الأفراد اليومية والمدنية، لما توفر لدينا بعض المعلومات القليلة والهامة والجديدة حول تاريخ المنطقة.

2- المصادر المكتوبة

كذلك المصادر التاريخيه المكتوبة لا تقدم أي معلومات عن قصر عين سيدي سليمان، شأنها في ذلك شأن المصادر التاريخية الفرنسية والتي ولأسباب مجهولة لم تأت على ذكر تواجد أطلال قصر بعين سيدي سليمان بوسماحة، رغم قيام السلطات الفرنسيه بتاريخ 1891م بأشغال صيانة وتهيئه منبع الماء المتواجد عند مدخل الجبل، وذلك حين استتب الأمن نسبيا بعد مغادرة الشيخ بوعمامة وجيشه نحو إقليم توات واحتمائه بسكان واحة دلدول مع نهاية عام 1883م إلى غاية 1894م؛ وذلك في إطار سياسة فرنسا الاستيطانية لشراء السلم الاجتماعي عبر الشروع في حملات لإنجاز خطوط السكة الحديدية، وتهيئة منابع العيون وحفر الآبار الذي تولى مهمتها اللواء الفرنسي لحفر الآبار بالجنوب الوهراني، إذ لا يزال مصب عين سيدي سليمان يحتفظ بالحنفية الحجرية التي دون عليها " **brigade de puisatiers 1891**" ورغم ذلك ورغم أهمية الموقع فإن أيا من الباحثين الفرنسيين الذين مروا بالمنطقة أو الذين اهتموا بتاريخ اولاد سيدي سليمان بوسماحة لم يأتوا على ذكر القصر أو العين أو حتى الضريح بجبل بوداود، والسبب في ذلك حسب اعتقادي أن

ISSN : 1112-4083

المكان لم يكن يقع ضمن الطريق الرئيسي الذي اختطته السلطات الاستعمارية بالتوازي مع طريق السكة الحديدية الذي يمر بالمنطقة شمال جبل عيسى بعيدا عن جبل بوداود، وهو الطريق الذي تسلكه قوافل الفرنسيين الوافدين إلى المنطقة من مختصين في علوم التاريخ أو المعالم الأثرية، فما كان الموقع ليسترعي انتباههم وهو في منآى عن أبصارهم.

ومادام هذا القصر يقع ضمن قصور جنوب تلمسان فإن أقدم المصادر التي أتت على ذكرها هو ما تعرض له العلامة ابن خلدون في تاريخه كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، إذ يقول في ذلك: «.. وعلى مراحل منها قرى أخرى متتابعة على سمتها متصاعدة قليلا إلى الجوف آخرها على مرحلة من قبلة جبل راشد وهي في مجالات بني عامر من زغبة وأوطانهم من القفر.. وقد تملكوها لحظ أبنائهم وقضاء حاجاتهم حتى نسبت إليهم في الشهرة.. ومن قبائل مضغرة أيضا بصحراء المغرب كثيرون ونزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخيل على طريقة العرب، فمنهم بتوات ومنهم في قبلة تلمسان وعلى ستة مراحل منها وهي قصور متقاربة بعضها من بعض أتلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران البدوي..» (ابن خلدون، ع، ج6، 2000، ص 101) وحين يخبرنا عن هزيمة الملك الزّياني أبو حمّو موسى الثّاني على يد المرينيين يذكر تعرّض هذه القصور إلى النّهب التّخريب فيقول: «..ورجعت العساكر من هناك، فسلكت على قصور بني عامر بالصّحراء قبلة جبل راشد، الّتي منها اربا وبوسمغون وما إليها، فانتهبوها وخرّبوها وعاثوا فيها، وانكفؤا راجعين إلى تلمسان» (ابن خلدون، ع، ج7، 2000، ص. 177).

أما الوثيقة الوحيدة التي أتت على ذكر عين سيدي سليمان بجبل بوداود، فهي عبارة عن مخطوط من 14 صفحة تُعرف عند أحفاد سيدي سليمان بوسماحة بـ "سلسلة ومناقب سيدي معمر بالعالية" لا يعرف اسم مدونها ولا تاريخ تدوينها، وقد أخذ منها حمزة بوبكر أغلب معلوماته في توثيق سيرة سيدي سليمان بن أبي سماحة في كتابه (صوفي جزائري، سيد الشيخ. 1990) واعتمدها نقلا عنه في ما بعد الباحث خليفة بن عمارة في كتابه "السيرة البوبكرية. 2000"، أصلها اليوم في خزانة زاوية سيدي الحاج بن عامر بمدينة البيض، وصلتني بواسطة الأستاذ الباحث شريف بن واز، تذكر هذه الوثيقة في الصفحة الرابعة عين سيدي سليمان بن أبي سماحة كما يلي: "..وسكن الشلالة الظهرانية ثلاثة سنين وسكن قرية اربا الأعلى أربعة أعوام، ورحل وبنى بيتا في عينه التي اشتراها لعبادة ربه قاصدا فيها

ISSN : 1112-4083

الخلوة والعزلة عن الناس وكان يتقوت منها، اشتراها من ابن صالح الحجري العامري، بخمسمائة دينار ذهبا، والعين مشهورة في جبل "زطّم" اسم أعجمي جوف الشلالة، وبقي هناك على رتبته العالية في العلم الذي في الفقه والنحو كالسؤالات المرسومات بالأجوبة السماحية، ثم ارتحل إلى فجيج" (سلسة سيدي امعمر بن العالية ص07، بدون تاريخ.) تبين الوثيقة أن العين اشتراها سيدي سليمان بن أبي سماحة من عند مالكها بن صالح الحجري من قبيلة بني عامر بمبلغ قدره 500 دينار ذهبي - وهو مبلغ كبير في ذلك العصر- وأن سيد سليمان بنى بيته هناك، ولا تذكر الوثيقة إن كان القصر موجودا حينها أم لا، ولا نعلم إن كان البيت المذكور الذي بناه سيدي سليان هو النواة الأولى للقصر أم أن سيدي سليمان بنى بيتا جديدا له والقصر قائم حينها، وهذا يقودنا إلى تساؤل تاريخي مهم، هل أن من بنى النواة الأولى للقصر هو سيدي سلميان بن أبي سماحة؟ أم أن القصر كان موجودا قبل ذلك، وكان يدخل ضمن أملاك بني عامر؟ وإن وجد من قبل، فما قيمته الاقتصادية والاجتماعية بدون العين التي انتقلت ملكيتها إلى سيدي سليمان؟

بغض النظر عن صحة الوثيقة التي تحتاج إلى دراسة وتحقيق منفصلين عن هذا البحث، فالمرجح أن القصر الأول الذي بني في أعلى الجبل -كما سأتي تفيله لا حقا- هو قصر عامري قديم، كان قائما قبل مجيئ سيدي سليمان، وأن سيدي سليمان هو من بنى النواة الأولى للقصر الثاني الذي يقع أسفل الجبل بجوار ضريحه القائم إلى اليوم، وما يفسر ذلك هو نقل مجرى العين إلى أسفل الجبل بجوار القصر الثاني، وبقاء القصر الأول على شكل قلعة تؤدي وظيفة تخزين وحفظ الحبوب فقط، دون السّكن أو الإقامة، كما تشير الوثيقة إلى أن سيدي سليمان كان يتقوت من العين وهو ما يفسر تواجد آثار زراعة بجوار القصر.

ثالثا الدراسة الأثرية

1- العمارة المدنية: (القصر والسوق)

أ- القصر

يوفر الموقع كل الظّروف الملائمة للاستيطان البشري، من جودة في الهواء، ووفرة في الماء، إضافة إلى قربه من المراعي الواسعة وفيرة الكلأ والحطب، وما يقدمه من تحصينات دفاعية طبيعية، كل ذلك جعل منه مكان مناسبا للاستقرار وبناء القصر، وهي اعتبارات لا تختلف

ISSN : 1112-4083

في مجملها عن أسباب اختيار مواقع القصور المجاورة التي يمكن أن نجملها في عاملين أساسيين: عامل إيكولوجي بيئي من جهة، وعامل أمني استراتيجي من جهة أخرى، فنجد في هذا الموقع قصرين يبعد كل منهما عن الآخر مسافة 600 متر.

القصر الأول

يقع في أعلى جبل بوداود على ارتفاع 1360 متر فوق سطح البحر وبمساحة إجمالية تقدر بـ 630 متر مربع، وهو موقع استراتيجي محصن طبيعيا من جميع الجهات داخل الجبل في منطقة ذات تضاريس وعرة ومسالك ضيقة يصعب الوصول إليها أو اكتشاف مكان القصر داخلها بيسر وسهولة، فقد بُني القصر على شكل قلعة مربعة لا تزال أسواره الخارجية به شبه قائمة خاصة من الجهة الغربية والجنوبية، يتراوح ارتفاعها ما بين 03 و04 متر، (الجدار. صورة 2) وفي الجهة الغربية الموالية لمنحدر الجبل نلاحظ آثار أبراج مراقبة عند الزوايا استعملت للحراسة والمراقبة، ومن الجهة الشرقية حيث تتواجد البوابة الرئيسية للقصر نجد عندها آثار خندق استعمل لتحصين القصر من الجهة المنخفضة، ولتصريف مياه الأمطار والسيول الآتية من قمة الجبل، أما داخل الأسوار فلا نجد إلا بعض الأساسات لغرف قليلة داخل القصر قد تكون استعملت لتخزين المؤن، فواضح جدا أن هذا القصر كان يؤدي وظيفة التخزين وحفظ الحبوب، وليس للسكن والإقامة كما هو الحال مع القصر ثاني الذي بني أسفل الجبل، وفي الجهة الجنوبية للقصر وعلى بعد 20 مترا نجد المنبع الأول والأصلي لعين سيدي سليمان التي بني بجوارها القصر، وهو الأمر الذي يدل على أن القصر الأول الأعلى أقدم زمنيا من القصر الثاني، والذي في فترة لاحقة تم توصيل مياه العين إليه عبر سواقي حجرية من أعلى الجبل إلى المنحدر على مسافة 532 متر، وبفارق في الارتفاع يقدر بـ 160 متر، ويربط بين القصر الأول والقصر الثاني ممر تم تهيئته بالحجارة المرصوفة ليساعد على تنقل الإنسان والدواب، ولنقل المؤن والبضائع، ويبدو أن هذا القصر قد استمر في أداء وظيفته حتى بعد بناء القصر الثاني.

القصر الثاني

يقع عند وسط المنحدر الشمالي لجبل بوداود، على ارتفاع يقدر بـ 1200 متر فوق سطح البحر وبمساحة إجمالية تقدر بـ 01.75 هكتار على الضفة الغربية للوادي الذي يخرج من أعلى الجبل، وأول ما يلفت الانتباه إليه هو المساحة الكبيرة التي بني عليها القصر مقارنة

ISSN : 1112-4083

بمساحة القصور التي لا تزال باقية إلى يومنا هذا، وبما أنه لم يتبق من القصر اليوم سوى الأساسات أو بعض بقايا الجدران الخارجية للمساكن وبعض السواري التي لا تزال قائمة، فإنه يبقى بحاجة ماسة إلى دراسة مادية وحفريات أركيولوجية لمعرفة النمط المعماري الدقيق الذي بني عليه. وما يمكن الوصول إليه من خلال الملاحظة الميدانية الأولية للموقع هو أن القصر بني بمواد طبيعية محلية تم جلبها من المكان، كالحجارة شبه المهذبة والطين وجذوع أشجار العرعار، ويظهر أن بعض جدران القصر كانت تغطيها لياسة طينية وزخارف بسيطة في بعض منازل الخاصة، وهو ما تبيّنه بقايا اللّياسة أسفل الجدار مما يدل على المكانة الاجتماعية والاقتصادية المرموقة التي عاشها بعض ساكني القصر، أما أزقة القصر فهي شديدة الضّيق ومساكنه متّصلة بالسّور الخارجي مباشرة، قد يرجع ذلك لندرة جذوع النخيل في المنطقة والتي من شأنها أن تساهم في اتساع الأزقة ورحابة الغرف، في حين تغطِّي معظم وحدات القصر الدّاخلية حجارة البّناء المنهارة، بطريقة توحي إلى تعرّضه في فترة من الفترات لعملية نهب وتخريب شاملة، جراء الغارات التي كانت شائعة بين قبائل البدو حتى زمن دخول الاستعمار الفرنسي إلى مطلع القرن التاسع عشر، كما أنه لا يمكن تمييز تخطيط الشوارع أو الأزقة بسبب الانهيار الكلي للقصر وانتشار أكوام الحجارة المبعثرة في كل مكان، وبدون حفريات أركيولوجية متخصصة لا يمكن تقديم الكثير من المعلومات عن النمط المعماري والعمراني للقصر، رغم أن المنظر العام لهندسته المعمارية لا يدل على اختلافات كبيرة في هندسته المعمارية عن باقي القصور المعروفة والمجاورة له في المنطقة.

يظهر أن القصر كان يضم العديد من المنازل والغرف، بعضها لا تزال آثار السواري فيها قائمة رغم انهيار السقف كليا، توحي هندستها المعمارية وأعمدة السواري والكوات المقوسة المغلقة، إلى اتخاذ المكان مسجدا أو مدرسة قرآنية، ومن غير المستبعد أن يكون هذا الموقع هو البيت الذي أقامه سيدي سليمان بن أبي وسماحة في تلك الفترة، نظرا لتميّزه عن باقي المنازل الأخرى، ونظرا لقربه من الضريح، مما يعزز من فرضية أن سيدي سليمان بن أبي سماحة هو أول من وضع اللبنات الأولى لهذا القصر.

ب- السوق

اختلف الباحثون حول ما إذا وجدت الأسواق قبل المدينة الإسلامية، أم نشأت معها؟ فالبعض منهم يرى أن الأسواق نشأت قبل ظهور المدينة الإسلامية، بينما يرى البعض الآخر

ISSN : 1112-4083

من الباحثين أن السوق وجدت ضمن الخطة التي رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة الإسلامية وحدد مكانها كمركز ثاني بعد المسجد (قوراري، ع، 2001، ص98). أما بالنسبة لقصر سيدي سليمان فيقابلك عند مدخل القصر الشمالي موقع يطلق عليه بدو المنطقة اسم "ضلعة السوق" حسب الرواية الشفوية فإن المكان كان يضم سوقا كبيرة تتوافد عليها بني عامر القادمة من الشمال في فترات موسمية لتبادل السلع خاصة في فصل الخريف، وقد تشكل سوق القصر على مساحات مبنية بشكل عشوائي على شكل حظائر وحلقات دائرية وشبه مربعة، يزيد عددها عن الأربعين حظيرة، بمساحة إجمالية تقدر ب 06 هكتار، لا يتعدى ارتفاع جدرانها مترا فوق سطح الأرض (حظائر السوق، الصورة 3) والمرجح أنها استغلت كذلك كمحابس للإبل والقوافل التي كانت تستريح في المكان.

ساهم موقع قصر سيدي سليمان الاستراتيجي في جعله مركز تموين بالسلع والمؤونة، ونقطة التقاء قوافل الشمال بقوافل الجنوب خاصة في موسم الخريف الذي يشهد تظاهرات دينية واجتماعية على غرار تظاهرة "الوعدة" وذلك لممارسة التجارة وتبادل السلع والمؤن الأساسية، وعقد الأحلاف والتصالحات، ويبدو أن الموقع كان يشكل محطة تجارية من هذا النوع حتى قبل أن يصبح قصرا آهلا، وفي هذا الموضوع يذكر محمد الطيب عقاب "...فالعلاقات الإقتصادية قد حددت نمط قيام الظاهرة العمرانية في الجنوب الجزائري... وبالتالي فهذه القصور تعتبر ظهيرا للمدن والدول.. وبما أنها واقعة في الأقاسي فهي دائما على حالة البداوة والفطرة معا حسب التعبير الخلدوني" (1990، ص 05) وقد ساهم غياب الأبحاث عن دور هذه القصور في الحياة التجارية ودورها في الربط بين أسواق المدن الكبرى ونشاط الأسواق بها في بقائها مجهولة، وفي هذا الموضوع ذكر الحبيب الجنحاني: ".. إن من بين الصعوبات التي تعترض الباحث عند دراسته لقضايا المجتمع المغربي في العصر الوسيط وحتى في العصور القديمة، هي جزئية المعرفة، بحيث ينحصر التاريخ العمراني في حياة المدن التي لا تمثل إلا نسبة قليلة من سكان المغرب، وبما أن المدينة مرتبطة بالريف إرتباطا عضويا، فإن المعلومات عن الريف المغربي والريف الإسلامي عامة قليلة خاصة في العصر الوسيط، وما يعرف عن الريف، نعلمه في أكثر الأحيان عن طريق المدينة. (1978، ص 08)

من المرجح أن ظهور قصر عين سيدي سليمان بوسماحة كان نتيجة لازدهار المكان اقتصاديا بعد اتخاذه نقطة تجارية هامة لتبادل السلع والمؤن بين قبائل بني عامر التي كانت

ISSN : 1112-4083

تأتي من الشمال محملة بالقمح والشعير والقماش، وقبائل حميان التاريخية التي كانت تتحكم في تجارة وادي الناموس إلى قورارة جنوبا وتأتي محملة بالتمر والعقاقير، وذلك لأن جبل بوداود هو من بين أول جبال الأطلس الصحراوي التي تقابلك شمالا بعد انحسار المناطق السهبية الواسعة التي تسهل تنقل قوافل قبائل بني عامر القادمة من التل، ولتوفره على مصادر الماء والكلأ الذي يكفي لاستقبال أعداد كبيرة من الإبل والمواشي، الأمر الذي يوفر على قبائل بني عامر التنقل داخل المناطق الجبلية الوعرة، ويوفر عليها عناء التنقل وسط العرق الغربي الكبير، ومن غير المستبعد أن يكون في فترة من الفترات مكانا لإحياء مناسبة الوعدة وإقامة سوق موسمية كبيرة هناك.

وما يدل على توافد قبائل بني عامر على المنطقة في تلك الفترة ما يذكره العلامة أحمد السّكوني في كتابه تقوية إيمان المحبين في ذكر كرامات سيدي عبد القادر بن محمد بن أبي سماحة في الكرامة 64 والكرامة 92 بأن قبيلة بني عامر كانت لا تزال تجوب المنطقة -خاصة في فصل الخريف- حتى زمن سيد الشيخ.

2- العمارة الدينية: (المقبرة والضريح)

أ- المقبرة:

يضم الموقع مقبرتان الأولى تحيط بضريح سيدي سليمان ولا تتعدى مساحتها 280 متر مربع، والثانية تقع شمال الضريح غير بعيد عن القصر الثاني، وهي أكبر من الأولى إذ تتجاوز مساحتها 800 متر مربع، تدل مساحتها الكبيرة على أن المكان عرف تعميرا بشريا زمنا طويلا، ويبدو أن المقبرة التي يتواجد بها ضريح سيدي سليمان كانت في أولى مراحل تكوينها تقتصر على خاصة سيدي سليمان فقط، ربما أهله أو بعض أتباعه وتلامذته بعده كما هو الحال عموما مع باقي أضرحة اولاد سيد الشيخ، وقد أثرت الرياح والأمطار وعوامل التّعرية على تخطيط معظم القبور، بحيث اندثر أغلبها ولم يبق بارزا منها سوى الحجارتين المنحوتتين في مقدمة ومؤخرة القبر، فيظهر من خلال شكلها الخارجي، أن القبر يتكون من حجارتين عموديتين، الأولى في مقدمة القبر عند رأس الجثمان والثانية عند قدميه في مؤخرة القبر، ويختلف شكل الصفيحة المنحوتة من قبر لآخر، فهناك الحجارة المنحوتة مثلثة الشكل وأخرى مستطيلة، طولها 50 سم وعرضها 30سم، وغالبا ما يصل ارتفاعها عن سطح القبر تقريبا 40 سم، تختلف وضعية الحجارتين المنحوتين على القبر لتميز بين قبر الذكر والأنثى،

ISSN : 1112-4083

فقبر الذكر عادة ما تجد الحجارتين المنحوتتين عموديتين على القبر، ومتناظرتين عليه، أما قبر الأنثى فتوضع الحجرة المنحوتة في مقدمة القبر عمودية، وتوضع الثانية أفقية عند القدمين، تظهر القبور مستطيلة الشكل، ويبلغ طولها ما بين 1.8م و2م، وعرضها ما بين 50 سم إلى 60 سم، ومن خلال المظهر الخارجي للقبر، فإن هذه المقبرة لا تختلف عن مقابر القصور المجاورة الأخرى في تخطيطها سواء المقابر الموجودة بالشلالة أو عسلة أو المقابر المعزولة الداثرة كمقبرة قصر مسيف وقصر تالبونة.

أما القصر الأول فلا نجد بالقرب منه أي أثر للمقبرة، وهو ما يدل على أن القصر كان يستعمل للتخزين فقط وليس للسكن والإقامة كما ذكرنا آنفا.

ب- الضريح

يقع الضريح بالقرب من القصر الثاني بضعة أمتار قليلة جنوبا، وقد تم بناؤه بمواد طبيعية محلية تم جلبها من المنطقة كالحجارة والطين وجذوع الأشجار، وأول ما يتم ملاحظته هو طريقة البناء البسيطة غير المتقنة التي بني بها الضريح، الأمر الذي يدل على أنه لم يتعرض لإعادة بناء جديدة فيما بعد، كما حدث مع باقي أضرحة سيدي سليمان بوسماحة وأبنائه من بعده، ورغم بنائه المتواضع وبساطة تفاصيله، فقد حرص بنّاؤوه الأوائل على إنجاز القبة فوقه رغم بساطة إنجازها وتواضع هندستها، يتشكل الضريح من بناء مربع تقدر مساحته ب 11 م^2 ارتفاع جدرانه 02م وتعلوه قبة مثمنة الأضلاع على شاكلة قبة سيدي سليمان بوسماحة ببني ونيف، وقبة سيد الشيخ بالأبيض سيد الشيخ، وقبة سيدي أحمد بن يوسف وسيدي عيسى بتيوت، والقبة التي على شكل مثمن أو مضلع منتشرة بكثرة في غرب الجزائر والمغرب الأقصى وتونس، وعلى ما يبدو فقد تم بناؤها على هذا النحو تأثرا بعمارة الطريقة القادرية في تشييد قبابها، ويتم الدخول إلى الضريح عبر باب غربي صغير ارتفاعه 80 سم وعرضه 40 سم، ولا يوجد بداخله أي معالم ظاهرة لقبر أو تابوت، سوى بعض الكوات في الجدران مخصصة لوضع الشموع، أو مكان في الأرضية مخصص لوضع الجمر وأنواع البخور، كما توجد بداخله بعض الأغراض التي لا يزال يحرص بدو المنطقة على توفيرها للزائرين وعابري السبيل داخل الأضرحة كالأفرشة والأغطية وبعض المؤونة كالتمر والدقيق، وهو الأمر الذي يدل على الغرض الرئيسي والأساسي الذي بنيت لأجله هذه القباب والأضرحة في المقام الأول، وهو توفير المأوى والمأكل

ISSN : 1112-4083

لعابر السبيل ولكل من انقطعت به السبل في منطقة كانت قديما قفارا أملسا وشبه خالية، بمناخ قاس وتضاريس صعبة، وذلك من باب الصدقات الجارية اقتداء بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" (رواه مسلم). فقد كان أهالي المنطقة يعتبرون حفر الآبار والعيون وتركها وقفا لعابري السبيل، وبناء الأضرحة والزوايا لتعليم القرآن وإطعام الطعام، من الصدقات الجارية التي يرجع ثوابها لمن تركها بعده أو أوقفها له أبناؤه نذرا وصدقة.

***- خاتمة**

كان لقصر عين سيدي سليمان بوسماحة أهمية بالغة في المنطقة نظرا لتواجده في موقع استراتيجي هام يربط بين العديد من قصور المنطقة، كالمشرية وتوسمولين والشلالة وعسلة ومسيف؛ فقد كان يضم قلعة كاملة مخصصة لتخزين المؤن والسلع، وقصرا كبيرا آهلا بالسكان بكامل مرافقه وملاحقه، وسوقا هامة تتوقف عندها قوافل بني عامر التي كانت تجوب المنطقة من الشمال إلى الجنوب؛ ولا شكّ أن دراسة أثريّة تحليليّة دقيقة لما تبقى من آثار قصر عين سيدي سليمان، كفيلة بإلقاء الضّوء أكثر على تاريخ هذا القصر وباقي القصور الأخرى التي على نمطه، والتي لا زال يكتنفها الكثير من الغموض، مع الإشارة إلى أنّ هذا الموقع الأثري يتعرض يوما بعد يوم للتّلف المستمر والتّدهور المنذر بالاضمحلال والزّوال جرّاء عدّة عوامل طبيعيّة وبشريّة، وحتى نوفّيه حقّه من الدّراسة والبحث فإنّ الأمر يتطلّب تضافر جهود باحثين ومختصين يعملون بصفة جماعية من عدة تخصّصات كعلم الآثار والتّاريخ، والأنثروبولوجيا والعمران والهندسة، والعمل على دراسة هذا النّوع من القصور التي هي الآن في طريق الزّوال على شاكلة قصر تونزمر، وقصر ملك سليمان بالبنود، وقصر تصلح وحجاج بتيوت، وقصر فندي وبويعلي ببني ونيف ..إلخ، كون هذه المعالم تختزل هويّتنا وثقافتنا المادّية، بدل من أن نرثيها ونبكي على أطلالها، ويبقى لكل مجتهد مصاب.

*****

ISSN : 1112-4083

المراجع:

- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2000). كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء 07، بيروت لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2004). المقدمة (الطبعة الأولى). بيروت. لبنان. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- أحمد بن أبي بكر السكوني الشريف الفجيجي، (1991) تقوية إيمان المحبين، مناقب سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة، تحقيق عبد الله طواهرية، أدرار الجزائر.
- أبو القاسم سعد الله، (1981). تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- الحبيب الجنحاني، (1978). المغرب الإسلامي -الحياة الاقتصادية بين القرنين 3هـ-4هـ، الدار التونسية للنشر، تونس.
- خليفة بن عمارة. (2000) سيرة البوبكرية، ترجمة محمد قندوسي، ج1، مكتبة جودي مسعود. الجزائر.
- سالوستيوس سالوست، (2007). الحرب اليوغرطية، نقله عن اللاتينية د. محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة بن غازي، ليبيا.
- "سلسلة سيدي امعمر بن العالية". (بدون تاريخ). [نسخة إلكترونية لمخطوط غير مكتمل وغير مصنف]. أصله في خزانة زاوية سيدي الحاج بن عامر بمدينة البيض.
- عيسى قوراري، قصر تيوت دراسة أثرية ومعمارية، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، 2000-2001.
- محمد الطيب عقاب، لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990.
- BOUBAKEUR Si Hamza. (1990). Un Soufi algérien Sidi Cheikh. Paris France. Maisonneuve & Larose
- F. Cominardi, (1995). Au cœur des monts de ksour, Le Ksar de chellala Dahrania tradit Modernité, H.T.M in revue d'architecture et d'urbanisme N°2 Alger.
- G. B. M Flamand, (1921). Les Pierres écrites (Hadjrat-Mektoubat) Gravures et inscriptions rupestres du Nord-Africain, Paris.
- Henri Lhote, (1970). les gravures rupestres du sud-oranais, centre national de la recherche scientifique, paris.
- Jacquot Félix, (1849) Expédition du général Cavaignac dans le Sahara algérien, Paris gid et baudry Editeurs.
- Malika Hachid, (1993). LES PIERRES ECRITES DE L'ATLAS SAHARIEN EL HADJRA EL MEKTOUBA, Tome 2, Entreprise Nationale des Arts Graphiques, Algerie .

ISSN : 1112-4083

ملحق

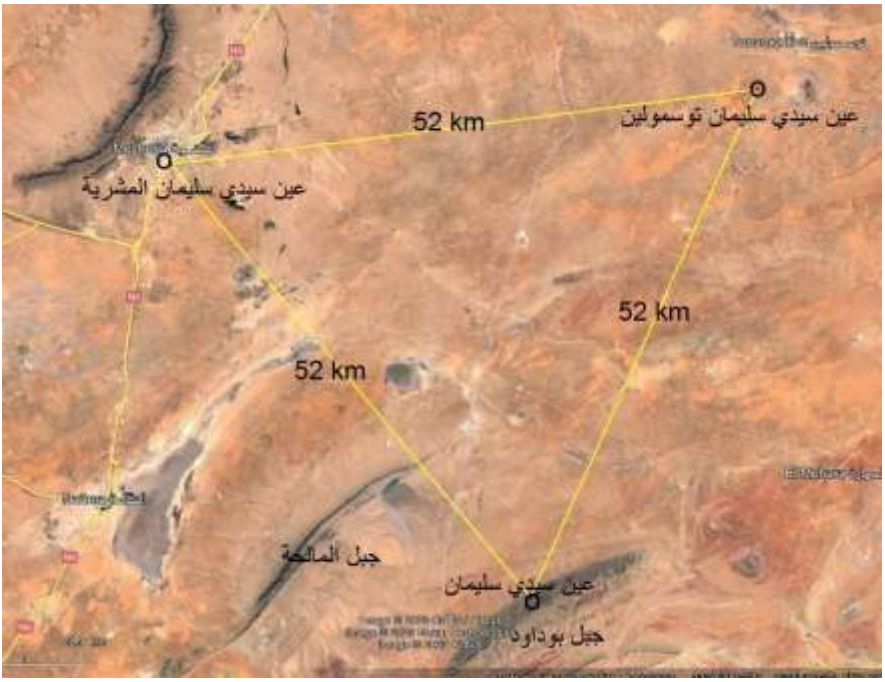

(الصورة رقم 01: المسافة بين عيون سيدي سليمان، صورة google earth)

ISSN : 1112-4083

(الصورة 02: سور خارجي من القصر الأول، صورة من التقاط الباحث)

ISSN : 1112-4083

(صورة 03: دوائر حجرية تشكل حظائر السوق، صورة google earth)

ISSN : 1112-4083

(صورة 04: ضريح سيدي سليمان، صورة من التقاط الباحث)

ISSN : 1112-4083

(صورة 05: الضريح والعين، صورة من التقاط الباحث)

ISSN : 1112-4083

(صورة 06: السواري والكوات، صورة من التقاط الباحث)

ISSN : 1112-4083

(صورة 07: آثار الطريق الرابط بين القصرين، صورة من التقاط الباحث)